الساحر

قصة : د. سيد شعبان

ما عاد ينفع ذلك القناع الذي ارتديته كل تلك الأعوام؛ ما يختفي عن العيون تكشفه الأوهام والظنون، تواريت في ثياب حاو أو غاو بل وحتى عباءة الخضر؛ في أي مكان يستدل عراف المدينة علي؛ ماهر في قراءة تعاريج وجهي؛ أتوارى خلف بطاقة هوية ملبسة، أسمتني أمي باسم بت أجهله من كثرة ما تخفيت وراء الألقاب والكنى؛ في زمن يطارد الناس لأجل فصيلة دمائهم؛ لم أحك لكم عن أيامي الماضية؛ كنت أرتدي ثوب ساحر؛ تسألون وكيف ذلك؟

سنوات تمضي وتبعتها أخر، حيلة تلد أختها؛ صرت الذي يضرب الودع؛ أخماسا في أسداس؛ يموت العجوز؛ يوصي الصغير أن ينتظر حتى تلد البقرة أتانا؛ في تلك الأيام؛ ستهرب خفافيش الليل؛ كتبت وصية لأحفادي أن يحفظوا كل أبيات النفاق حتى يسمعوا الذي مد ظله ما يشنهي من شعر، يهبوه ما يحبون من ذوات القد والخصر والنهد.

انصاع المسوسون؛ كل واحد به داء؛ عجز أن يأتي أنثاه، لا تجري الفحولة في ظهور محنية؛ مذلة السوط تميت الأجنة، برودة الشتاء لا تفلح معها تلال من حطب.

أطارد الغربان مطلع الفجر ومغرب الشمس؛ ما تذر من حب إلا أتت عليه ؛ إنها تكره أن تخضر الأرض؛ مللت من غرس ما يجتنى منه ثمر، يبدو أن زمن مدن الملح بخماسيتها المعهودة يستبد بنا.

فررت منهم؛ تجمعوا ليسملوا عيني؛ حاولت الفرار منهم لما خفتهم.

مهنة رائجة في زمن السبع الشداد؛ بضاعتي كلمات أدندن بها، ألفاظ مخايلة؛ أقنعت الممسوسين بأن شفاءهم على يدي، نجم في السماء إن ظهر أعطوا سمنا وعسلا؛ تتزوج العانس، ويكتسى العريان، تمطر السماء في الصيف أرغفة من ذهب؛ جاءوا لي مرة بحمار حصاوي؛ تجمعوا ورائي؛ يزفونني الشيخ صاحب الكرامات، تخيلوا صدقت نقسي؛ أنني المبارك أينما ذهبت؛ مارست الكهانة، ألقت علي امرأة –خدها أحمر؛ شعرها أشبه بذيل حصان جامح،– حين غطتني بثوبها الأحمر الشفاف؛ جريت وراءها، سحرتني وأنا الذي اعتقدوه مخلصهم، على أية حال، تبعتها؛ وللهوى سحر وصبا، صبغت شعر رأسي بالحناء، عطفت على العطار؛ أستدعي دهنه؛ سمنت رقبتي؛ جرى ماء الصبابة وتراقصت الأوهام في جسد اعتاد الخمول، صرت أتبعها، من غير حبل أقعى أمامها.

سرقت لقبي ووشمي وكنيتي، أضرب الحجر فيظل راكدا، أدندن فلا يفلح سحري، هربت من مهنة لم يعد وراءها نفع؛ يبدو أن الأنثى أشد مكرا، كل نسوة المدينة يرتدين ثيابا زاعقة، شعورهن خيول جامحة؛ يتراقصن في مهارة حية تخاتل بجسدها.

اعتل الرجال، بت أعاني فراغا، غيرت قناعي، ارتديت ثوب حامل المبخرة، أهتف في الميادين؛ ليحيا الذي وهبنا أرغفة وأعطانا أمنا؛ ليدم ظله، تسامع بي رجاله؛ عبثا أقنعتهم بأنني من الجوقة؛ كل الذين يسبحون بمحامده به وشم؛ ركلا بالأقدام، سحلا في طريق الآلام؛ تركوني وقد ولغت الذئاب في دمي، جاءتني المرأة التي سرقت مهنتي؛ دثرتني بعباءتها؛ سقتني من شفة لا أجهل سحرها؛ حين يستبد بها الهوى تتراقص في لهب ليل لا قمر له، وشمتني فصرت ممن تفتح لهم الأبواب؛ رفعتني على أريكة مذهبة؛

تماديت في سيرى، أرسلت المجاذيب يهتفون بالذي أعطاهم الليل والنهار، صدقت ما أخايل به؛ أخفي الشمس في صرة، أرسل القمر إلى بلاد بعيدة؛ أطارد أحلام الصغار، سرقت عيون الجميلات، تقال لي قصائد الشعر؛ تدوي ورائي هتافات؛ حين احتاجوا أرغفة تملأ بطونهم أشبعتهم حكايات؛ ألبستهم ثيابا مخملية، ناموا ينتظرون أن تجلب لهم العصافير حبات من عنب.

لف المجاذيب الحواري والأزقة؛ الجوعى يحلمون بأقراص من خبز؛ رسمت لهم خيوطا من حرير نسجته أجنحة الغربان.

هبت ريح، صاح الديك؛ أشرقت شمس يوم ربيعي؛ انكشف الغطاء؛ تفتحت عيون كنت أجهلها؛ وللقدر يد لا أعلمها، نداء علوي» ولا يفلح الساحر حيث أتى»

أمسكت بورقة وقلم؛ تلك جناية أخرى؛ ساكن المنبر في زاوية سيدي الغريب يوصي أتباعه أن يقطوا كل إصبع يتحرك فوق الأوراق، فما العلم إلا ما تقاطر من لحيته، وما الدين إلا ما تقاصر من ثوبه.

تعبت من المنافي؛ أويت إلى ظل حائط؛ غفل الخضر عنه، تدب فيه أفعى، ليكن لي ما أشتهي من مقعد في حافلة تجرها كلاب معلمة في رقابها أجراس العودة، ضلالة الطريق ما تفلح معها عصا ولا قلادة.